الفصل الثالث

موت مفاجئ

الثاني من أبريل ٢٠١٥م / المكلا

مضى من الليل نصفه، فاشتد سواده، وقطن معه الهدوء والسكينة في أرجاء المدينة، واختفت حركة الحياة إلا من ضياء مصابيح الإنارة بالشوارع تحاول تبديد الظلام، وحشرات الليل تعزف مقطوعات المساء التي صدحت في الأنحاء بين الفينة والأخرى، وأما الناس فقد آووا إلى فُرشهم، وغرقوا في سبات آمنين مطمئنين، مرتقبين ولادة يوم جديد تعود فيها الحياة إليها وإليهم.

فجأة، دوت أصداء الموت دون سابق إنذار.

من نواحٍ شتى، هزت انفجارات عنيفة المدينة كلها، وعلا أزيز الرصاص في كل مكان قض المضاجع، وأفزع القلوب الآمنة، وأرعب الجميع دون أن يدركوا ما يحدث.

هل تتعرض المدينة لغزوٍ دون أن تكون هنالك أية بوادر لحربٍ قادمة نحوها؟

استيقظ عبد الكريم وزوجته في هلع على أثر الدوي الأول، هتفت عائشة في ذعر:

-ما هذا الصوت؟ ما الذي حدث؟

أجابها في قلق:

-إنه دوي انفجار، لكن ما سببه يا ترى؟

ما كاد يكمل كلمته حتى أجابها صوت دوي آخر هز قلبيهما هذه المرة، ضاعف القلق والخوف في أعماقه؛ لكنه حافظ على رباطة جأشه، أما هي فقد غرس الخوف بأنيابه على صدرها منتزعاً كل ذرة ثبات باقية فيه، فارتجف جسدها في عنف ووضعت يديها على أذنيها وكادت تصرخ، لولا أن احتضنها وهو يقول مهدئاً:

-هدئي من خوفك قليلاً يا عائشة، لا يبدو قريباً منّا.

ضمته لها لم تهون ما مس شغاف قلبها وضاعف من اضطرابها؛ بل ظلت ترتجف بين يديه وهي تجيبه في نبرة أثقلتها العبرات وبعثرها الذعر:

-كيف تريدني أن أهدأ؟ إنه مرعب جداً أشعر به وكأنه ...

قطعت عبارتها حين تناهى إلى سمعها صوت بكاء رُبا تستنجد بها، هنا استيقظت من ذعرها وتناست كل ما بها، وأسرعت تبتعد عن زوجها لتقفز من سريرها وتجري مهرولة لتغادر الغرفة وتدرك ابنتها، ولحق بها.

وجدا الصغيرة قد استيقظت؛ جالسة على سريرها وجسدها يرتجف خوفاً، والدموع تتساقط من عينيها العسليتين، وتنهمر على خديها كحباتٍ من اللؤلؤ انسابت على بشرتها البيضاء، أما شعرها البني فقد انسدل خلف ظهرها على شكل ظفيره طويلة واحدة، كانت رُبا طفلة جميلة كلؤلؤة بيضاء صافية.

ما أن اقتحمت أمها الغرفة حتى سطع الأمان في عينيها، فأسرعت إليها لتضمها إلى صدرها وتهون خوفها رغم ذعرها واضطراب نفسها.

الأم عطاء لا ينضب مهما كانت حالتها ووضعها، روحها دائماً الملجأ والملاذ في أحلك الظروف حتى وإن لم يكن لها أي ملاذ.

هتفت رُبا بها ودموع الخوف لا تزال تنهمر من عينيها وعبرات تخنق كلماتها:

-ما تلك الأصوات يا أمي؟

أجابتها وهي تمسح دموعها ثم تمسح على رأسها:

-لستُ أدري يا ابنتي؛ لكن لا تخافي أنا إلى جوارك.

هدأ خوف رُبا قليلاً وهي تعود لترمي رأسها في حضنها، فاطمأن عبد الكريم حين رأى ذلك..لحظتها أطل طارق عليهم والخوف يسبب ارتجافاً في جسده هو الآخر، ويربك كلماته التي خرجت من حلقه متقطعة:

-هناك مسلحون يهجمون على قصر الرئاسة في المنطقة.

قال والده في قلق:

-من هم؟ وكيف عرفت؟

-لا أدري من هم؛ لكني عرفت هذا من رسائل عبر (الواتس) لبعض أصدقائي، الهجوم عنيف، وأيضاً في أماكن متفرقة من أحياء المكلا.

قالت عائشة في خوف:

-لطفك ورحمتك يا إلهي، هل ستتجه أنظار الحرب إلينا؟

-وهل نتوقع الأمن والأطماع تتناهش كل أوصال البلد؟

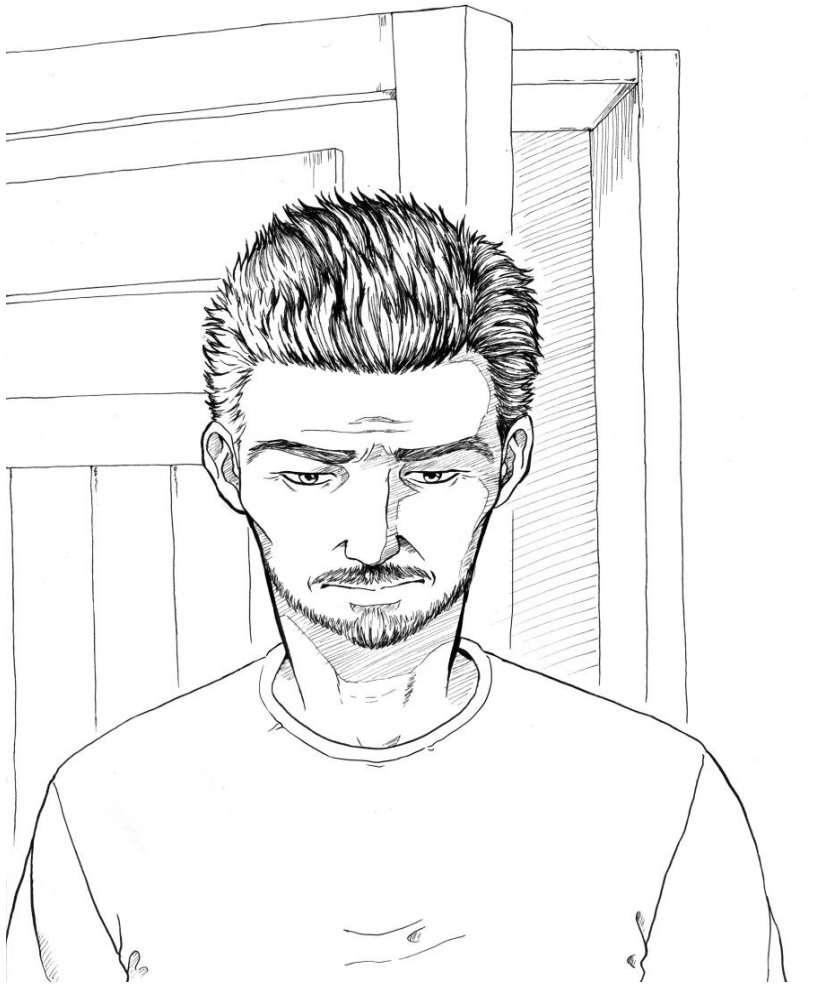

قال عبد الكريم ذلك في نفسه، ولم يشأ أن يوجع زوجته وولده بكلماته، ثم قال لهما محاولاً بث الطمأنينة فيهم:

-لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، اهدأوا رجاء.

وهو في طريقه للخروج من الغرفة ربت على كتف ابنه ليهدأ من خوفه فابتلع الأخير عبرة خوفه وهز رأسه في صمت وعاد لغرفته، بينما ظلت عائشة جالسة إلى جوار ابنتها لتزيل خوفها ولسانها لا يفتر عن التضرع لربها.

أما عبد الكريم فقد توضأ وصلى ركعتين يلتجىء فيهما إلى الله لتنجلي هذه الصدمة المباغتة.

طوال ساعات الليل لم تنقطع أصوات الانفجارات حتى الفجر، لم تكن قريبة من منطقة سكن طارق إلا أن صوت دويها كان قوياً.

حاول النوم وتجاهل ما يحدث لكنه لم يستطع، الدوي يهز قلبه ويجفله أحياناً إن استسلمت عيناه له للحظات، تقلب يمنة ويسرة واضعاً يديه على أذنيه ثم وضع وسادته لم يفلح أيضاً، وأخيراً وضع السماعة على أذنيه وفتح تسجيلاً لأغنية في هاتفه بأعلى صوت محاولاً تناسي ما يجري وهو يكابد خوفه لوحده.

-تباً لهم، ما الذي يريدونه من تصرفاتهم هذه وفي هذا الوقت؟

تمتم بذلك لنفسه في غضب واستنكار رغم أن الدوي ظل عنيداً يتسلل من تحت سماعته بصوت مكتوم، ويهز جسده ليؤكد له وجوده ويمعن في إيذائه، إلا إنه قرر التجاهل باستماته.

الجميع ظل ساهراً في تلك الليلة.

وعند الفجر هدأ كل شيء وانقطعت الأصوات المرعبة، فاستسلمت رُبا لنوم عميق اطمأنت له عائشة، ثم أرخت رأسها على وسادتها ودثرتها، ثم قبلتها وخرجت لتستطلع بقية أفراد عائلتها.

فتحت غرفة طارق فوجدته قد غرق في سبات هو الآخر وهاتفه في يده والسماعة قد أبعدها عنه، وسريره في حالة فوضى، فاتضح لها كثرة تقلبه ومحاولة النوم مراراً، ابتسمت في إشفاق، وأسرعت تبعد الهاتف والسماعة وتدثره بغطائه، وغادرت الغرفة متجهة إلى غرفتها، وجدت عبد الكريم واقفاً في الصالة وهو يرتدي ملابس الخروج ويتطلع لساعة الحائط والقلق على محياه.

توقف كل شيء حتى صوت الأذان لم يُسمع من مسجد الحي، ألهذه الدرجة الوضع مضطربٌ في الخارج؟

تمتم بذلك في نفسه، إلا أنه كان يقرر الخروج لأداء الصلاة، أدركت ما كان يدور في فكره، أسرعت إليه تمسك بذراعه وتمنعه وهي تقول باكية في خوف:

-لا تزد قلقي وخوفي يا عبد الكريم، إلى الآن لا نعلم بشيء عما حدث، أرجوك، لا تغادر البيت الآن.

لم يرغب في الامتثال لأمرها، وفي الوقت ذاته لم يشأ أن يزيد ما بها، الا أنه امتثل لطلبها، وأدى هو وطارق صلاتهما في المنزل.

وما أن شعشع نور الصباح حتى خرج برفقة ابنه سيراً على الأقدام ليستطلعا حيهما، فشاهدا أمراً عجيباً جعلهما يتطلعان في ذهول واندهاش حولهما!!.

الشوارع خالية من السيارات ومن المارة إلا نفرٌ قليل، المحلات الكبيرة والصغيرة كلها مغلقة، حركة الحياة المألوفة انعدمت فجأة، وكأن المدينة قد تم هجرها منذ عقود، أشعة شمس الصباح بدت باهتة الضياء، وزقزقة العصافير قد اختفت، كل شيء في ذلك الصباح كان باهتاً، لقد اختفى كل أثر لروح الحياة، بعد لحظات، أقبلت في الشارع المقابل لهما عدة باصات تقل على ظهرها رجالٌ يرتدون ملابس عادية كبقية السكان، متأهبين بأسلحتهم، متلثمين بعمائهم، يتجولون في الشوارع بحرية وينطلقون بمركباتهم بسرعة، وعيونهم تستطلع كل ما حولهم في حذر، محاولين إثارة الرعب بهيئتهم، وكأن كل الطرقات خلت لأجلهم.

-ما الذي يفعله هؤلاء؟ هل يظنون أن هذه الأرض أرضهم حتى يطوفون في شوارع المدينة بكل ارتياح؟

قالها طارق في ضيق وغضب، بينما تملك القلق عبد الكريم مما رأى، فتمتم في نفسه:

-هل وقعت المدينة في يد هؤلاء العصبة؟

هنا أمسك بيد ابنه وجذبه ليعودا أدراجهما للبيت، فاستقبلتهما عائشة مستفهمة عما حدث؟ أخبرها بما رأى، ثم قال في قلق:

-الوضع لا يبدو مطمئناً يا عائشة، لكني ذاهب لأستطلع الأمر عن قرب.

-تستطلع ماذا؟ ابقَ هنا.

صاحت به في خوف، فقال في حزم:

-لا أستطيع البقاء الآن، لدي عملٌ يجب أن أنجزه أيضاً.

-أي عملٍ هذا في ظل وضع مجهول مقلق يا عبد الكريم؟

-قلتُ لك لا أستطيع يا عائشة، لقد وعدت بعض المستأجرين بأن أزور أماكن سكنهم حين شكوني من بعض الخلل بالشقق، وأيضاً سأحاول فهم الوضع حولنا، الأمر يثير حيرتي وقلقي.

قال طارق:

-سأذهب أنا أيضاً لأقابل أصدقائي وأعرف ما يجري.

رد عبد الكريم في حزم:

-لا، أنت لن تغادر المنزل لأي سبب يا طارق.

سأله في حيرة:

-لماذا؟

-قلت الوضع غير مطمئن، سأستطلع الأمر أولاً بعدها سأسمح لك.

قال له في رجاء:

-أرجوك أبي.

-قلت لا، ابقَ إلى جانب والدتك إلى أن أعود.

امتثل لأمر له مرغماً، قالت عائشة:

-أرجوك لا تتأخر.

هز رأسه ثم خرج متجها للمرآب، وركب سيارته، وانطلق نحو وسط المدينة، وازداد حيرة وذهولاً وهو يتطلع فيما حوله كلما تقدم مسافة؛

الطرقات كلها شبه خالية، حركة المركبات قليلة، المحطات تعج بها في انتظار دورها وكأن الوقود في ظرف ساعات قد نفذ، المحلات على طول الطريق مغلقة. وحين أوشك على الخروج من (فوة) تلقته نقطة تفتيش تزعمها عدد من أولئك الملثمين متمنطقين ببنادق ورشاشات، تراوحت أعمارهم ما بين العشرينيات والثلاثينات، شعثاً غبراً، يلوحون بأسلحتهم وأيديهم ليستوقفوا السائقين ويفتشوا مركباتهم، تجلد استعداداً لمواجهتهم، وحين حان دوره اقترب منه شابان أسمران في مثل عمر ابنه طارق، قال أحدهما له في حزم:

-إلى أين؟

-إلى وسط المدينة، أريد زيارة أحدهم.

-ماذا تحمل معك؟

-لا شيء.

-سنفتش السيارة.

دون انتظار إذن، فتح الشاب الآخر حقيبة السيارة وتطلع إلى ما بداخلها، بينما نظر زميله الأول نحو المقاعد الخلفية، وحين لم يجدا ما يلفت انتباههما سمحا له بالمرور ليلتفتا لغيره.

تعاظم الغضب في صدره؛ لكنه كتم غيظه.

كيف كان بالأمس يقطع الطريق، وكيف صار اليوم، لم يكن يتلقى أي سؤال عن وجهته وغايته، مضى لعمله بالأمس فقط وفي مثل هذا الوقت وبكل اطمئنان.

كيف صارت المدينة محتلة بين عشية وضحاها؟ أين الجنود الذين يحمون المدينة ويطوفون بشوارعها؟ أين اختفوا؟

لم يلمح أثراً لأحدٍ منهم حتى اللحظة.

تابع سيره ونقاط التفتيش تتوالى أمامه واحدة تلو الأخرى لتستقبله وغيره بالتحقيقات والتفتيش وكأن هنالك مجرماً فاراً من العدالة يختبئ بينهم، ثم رأى السكان في وسط المدينة يجوبون الشوارع ليستطلعوا ما يحدث حولهم وحالة من الذهول تعتليهم مثل ما كان هو ولا يزال.

لقد هل صباح غير عادي على الجميع.

وقعت عيناه على البنوك فوجدها قد دمرتُ ونهبت، منشآت ثقافية صارت أثراً بعد عين، مستشفيات ومحلات لم تسلم من النهب والعبث.

توقف للحظات عند تجمهر رجال يتحدثون أمام أحد المباني المدمرة، فسمع أن بعض البيوت قد انتهكت حرمتها القذائف محطمة بعض جدرانها، وثمة جرحى وقتلى سقطوا ليلة أمس جراء هجومٍ عبثي لم تُعرف له غاية إلا التدمير، وسيطر الغزاة في كل نقطة حيوية بالمدينة هي نفسها التي كان يتمركز فيها الجنود، و وانتشروا في مداخلها ومخارجها مطوقين الخناق

عليها، وهم الآن في طريقهم ليحكموا سيطرتهم على ما تبقى من ساحل المحافظة، قال لنفسه:

-عجباً ما يجري هنا، كيف تم كل هذا بسرعة!؟

-سيد عبد الكريم!

انتبه لصوت سهيل ينادي عليه، فنظر إليه، وقال:

-أهلاً سهيل.

-لِم أتيت إلى هنا يا سيدي؟

-لقد وعدتُ المستأجرين في حي (الشهيد) بأن أزور شققهم.

-لا تستطيع الذهاب، أولئك المجرمون منتشرون بكثافة هناك، حتى أن الناس نزحت من بيوتها خوفها منهم، لقد سيطروا على منطقة عسكرية في (خلف).

-رباه، كيف حدث كل هذا؟ أنا لا أفهم شيئاً، هل كل هؤلاء مختبئين بين الناس؟

-لقد هجموا على السجن المركزي وحرروا رفاقهم، ودمروه وقتلوا كل جندي يعترض طريقهم، لم يتوانوا ليلة أمس عن إبادة من يعترضهم، وسرقوا ونهبوا ما يريدون ، لقد أطبقوا على أنفاسنا فجأة.

عقد عبد الكريم حاجبيه، وقال في حدة:

-قلة تفعل ذلك! أين الجيش؟ أين محافظنا؟ أين مسؤولينا؟ أين هم من هذا الوضع؟

هز سهيل رأسه وهو يقول في أسف:

-لا أحد، لا أثر لأي منهم، جميعهم فروا من المدينة، أشعر بأننا تُركنا لنستقبل الموت بأنفسنا بدلاً عنهم.

مع كل هذه الظروف أدرك أن المدينة أصبحت في حالة احتضار، غزو وقلق وخوف ودمار، أمات الحياة فيها على حين غرة، موت مفاجئ سلب منها روحها فأحزن ساكنيها، فقال:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ما العمل الآن؟

-ارحل يا سيدي..

-ارحل!!

-نعم، كل من له أقارب خارج المكلا أو يستطيع الإقامة بعيداً عن مكائد هؤلاء رحل، الناس تبحث عن الأمان والطمأنينة.

ران الصمت عليه، بينما قال سهيل:

-إن كنت تخشى على العمل فأنا سأتابعه لأني لا أستطيع مغادرة المدينة فلا أحد لي خارجها وليس لدي القدرة على ذلك، ولا أعتقد بأن أحدهم سيجرؤ على فتح مقر عمله حتى تستقر الأمور.

-ولا أحد يدري ماذا سيحدث بعد هذا أو متى سيرحل هؤلاء، سأفكر فيما قلت، دعني أتصل بالمستأجرين الآن وأعتذر لهم عن الحضور بسبب ما يحدث هناك، وأريد أن أعقد اجتماعا عصر اليوم بالمؤسسة، اتصل بجميع الموظفين.

-اجتماع!!

-نعم، اجتماع طارئ.

-حاضر، سأبلغ الجميع.

*****